منهج دراسة الحالة
في العلوم الاجتماعية والإنسانية

الأستاذ الدكتور أحمد بوذراع
قسم علم الاجتماع
كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية ــ باتنة

مقدمة:

يعد منهج دراسة الحالة من المناهج الأكثر استخداما وانتشارا في الدراسات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وهذا راجع إلى أن دراسة الحالة مسألة هامة هي الوصف والتحليل الشامل والدقيق للظاهرة اجتماعية والنفسية والاقتصادية والتاريخية والسياسية .....في المجتمع الكبير.

وهذا ما جعل منهج دراسة الحالة يخضع إلى طبيعة المعرفة والبحث فيها وكذلك العمل على تقديم المعالجة والحلول المناسبة لخدمة الإنسانية من حيث حل مشاكلها وهذا ما تم التأكيد عليه من طرف العاملين في البحث العلمي في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية وهم بذلك حددوا المعالم و الطرق والوسائل التي من خلالها تحديد مناهج البحث وأدواته وهذا على الرغم من طبيعة اختلاف العلوم بعضها عن البعض مما أصبح واضحا بأن منهج دراسة الحالة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية لا يخرج عن نطاق ما تم إنجازه في المعرفة والعلم في مجال البحث العلمي الذي أصبح حقيقة وجوده وعدم وجوده مرهون بالمناهج العلمية المستخدمة في الأبحاث كمنهج دراسة الحالة.

وعليه يمكن القول بأن هناك فوارق قائمة بين المنهج في حد ذاته وبين المنهج من حيث تطبيقاته المختلفة باختلاف العلوم مع أن هناك اتفاق عام بأن البحث العلمي يفترض في كل خطوة من

خطواته بأنه ينطلق من طبيعة أطر نظرية وفكرية معينة تسمح للباحث من تحديد مجال بحثه والتعمق في دراسته ولذا فان منهج دراسة الحالة له قيمته المحدودة في مجال البحث العلمي ما لم تسيطر عليه الذاتية ولم يجد من يحسن استخدامه والتعامل معه عقلانيا من أجل الإبداع الحقيقي في التطبيق .

وفي اعتقادي بان منهج دراسة الحالة نفسه لا عيب فيه و إنما يمكن العيب والخطأ في كيفية استخدامه عمليا ولذا كانت الانتقادات المنصبة جلها عليه كانت حول كيفية الاستخدام الموضوعي لمنهج دراسة الحالة.

وعليه يمكن تحديد مسار هذه المداخلة منهجيا من خلال اهم المحاور التالية:

أولا : أهمية منهج دراسة الحالة وأهدافه

يعرف الباحث الحالي "منهج دراسة الحالة ، بأنه طريقة علمية تتميز بالعمق والشمول والفحص التحليل الدقيق لأي ظاهرة أو مشكلة أو نوع من السلوك المطلوب دراسته لدى شخص أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمع ، بعد فهم الظاهرة فهما جيدا، بهدف الوصول إلى استنتاجات ومبادئ عامة تصلح لوضع تعميمات تخدم عمليات التشخيص والعلاج والتوجيه والإرشاد.

ويرى حامد زهوان أن دراسة الحالة وسيلة شائعة الاستخدام لتلخيص أكبر عدد ممكن من المعلومات عن العميل ، وهي أكثر الوسائل شمولا وتحليلا وهي منهج لتنسيق وتحليل المعلومات التي جمعت بوسائل جمع المعلومات الأخرى عن الحلة وعن البيئة وهي بحث شامل لاهم عناصر حياة العميل وهي وسلة لتقدم صورة مجمعة للشخصية ككل وبذلك تشمل دراسة مفصلة للفرد في حاضره وماضيه وهي بذلك تصور فعلا فردية الحالة وتهدف دراسة الحالة إلى الوصول إلى فهم أفضل للعميل وتحديد وتشخيص مشكلاته وطبيعتها واسبابها واتخاذ التوصيات الإرشادية والتخطيط

للخدمات الإرشادية اللازمة. والهدف الرئيسي لدراسة الحالة هو تجميع المعلومات ومراجعتها ودراستها وتحليلها وتركيبها وتجميعها وتنظيمها وتلخيصها ووزنها إكلينيكيا أي وضع وزن إكلينيكي أثقل من الوزن الإكلينيكي لعشرات المعلومات الأخرى، و تعتبر دراسة الحالة بمثابة منظر من بعيد ، و فكرة عامة وشاملة عن الحالة وتشمل كل المعلومات والعوامل والخبرات التي جعلت الحالة على ما هي عليه أي أنها تشتمل على المعلومات الهامة (جامد زهران 1980، ص ص 178-182) وبذكر أحمد محمد عبد الخالق أن منهج دراسة الحالة قد استخدم بنجاح على يد عالم النفس السويسري الشهير _جان بياجيه) j.paiget لملاحظة الاستقلال (الاستنتاج) وحل المشكلة لدى أطفاله هو خلال مرحلتي الرضاعة والطفولة . واطرف استخدام لدراسة الحالة استخداما معينا على عامل النفس الألماني الرائد (هيرمان ايبنجهاوس) H.EBBINGHAUS (1850-1909) من دراسة لنفسه فاحصا ومفحوصا بهدف تحديد منحنى النسيان كما قامت الطبيبة (اليزابيت كوبلروس) ROSS-E.KUBLER مع مساعديها بدراسة مراحل الاختصار، قدرت عن طريق المقابلات الشخصية حالة أكثر من مائتي مريض في مرضهم الأخير (مرض الموت) وذلك حتى تصرف المزيد عن المراحل المتأخرة من الحياة بكل ما فيها من قلق وخوف وأمل ولمعاونة المرضى وهم في أواخر أيامهم على الأرض حتى يقضوا نحبهم بصورة مريحة إلى حد ما.. واعتمادا على دراسة هذه الحالات فقد حددت الباحثة مراحل الاختصار (أحمد عبد الخالق 1989، ص ص 137-138) كما استخدم (سيجموند فرويد) s.freud هذا المنهج في سؤال مرضاه لاستعادة ذاكرتهم عن خبراتهم ومشاعرهم السابقة ، و بهذه الطريقة وبالاستفادة من هذه الوثائق الشخصية والرسائل والمفكرات بعد فحصها وتحليلها وللتأكيد من واقعيتها وأصالتها بالإضافة إلى الأساليب النفسية والبيولوجية والاجتماعية فضلا عن التاريخ الطبي

والمحادثات والمقابلات الإكلينيكية تمكن فرويد من رسم صورة متكاملة عن المفحوص وتعرف إلى الأسباب الرئيسية التي أدت بالفرد أو الجماعة المفحوصة إلى وضعها الراهن.

ومن ناحية أخرى ، فان دراسة الحالة يمكن أن تفيد في توضيح وتطوير وفهم افضل لظاهرة الاجتماعية كدراسة السارق ل "شو" shaw فتفسير ظاهرة السرقة قام الباحث بتتبع حياة شخص سارق واحد فجمع كل ما يتعلق به من معلومات رسمية ثم أخضعه للدراسة الطويلة ، فترة تاريخية طويلة ن وعلى الرغم من أن البحث لظاهرة السرقة واسبابها (مصطفى التير ، 1983، ص ص 58-61) وقد تأخذ الدراسة نمطا يستدعي تجميع بيانات حول أكثر من شخص كالدراسة التي قام بها (هيلي) و (شملت) على عينة قوامها ألف حدث جانح وقد استخدم هذان الباحثان منهج دراسة الحالة بالرغم من كبر حجم العينة. وفي بعض الحالات يقوم الباحث بدراسة المجتمع الصغير كمجتمع الفردية أو المدنية الصغيرة وتوجد دراسات كبيرة من هذا النوع خصوصا تلك الدراسات الأنثروبولوجية المتعلقة بوصف أو تحليل الحياة أو العلاقات الاجتماعية. كدراسة "جامد عمار" المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية في قرية مصرية ودراسة "محمد عاطف غيث" بعنوان القرية المتغيرة "نفس المصدر والموضوع.

مما سبق يمكن تلخيص أهداف منهج دراسة الحالة في ما يلي:

1-اكتشاف الأسباب الرئيسية للأوضاع الحالية من خلال التحليل الدقيق والوصف الشامل العميق للبيانات والمعلومات.

2-وضع خطة لتحسين هذه الأوضاع أو تصحيح مسارها.

3-العمل على تعديل الاتجاهات غير المرغوبة أو تغيرها.

4-التعرف على الحقائق وتسجيلها بموضوعية والقيام بتحليلها بغرض تعليمها وتشخيصها والوصل منها إلى استنتاجات ومبادئ عامة.

5-تقدم تصور لامكانية الاستفادة من استخدام هذه الحقائق في العلاج النفسي أو الإصلاح الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي (bromley ،1986 ،pp-24)

ثانيا : قواعد منهج دراسة الحالة

يوجد اتفاق بين الدراسة في مجال العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، بان منهج دراسة الحالة تتحكم فيه مجموعة من القواعد يجب احترام توافرها في حالة استخدامه والتي يمكن حصر أهمها و هي :

الأمانة العلمية الصادقة و الدقة في تحديد و صف الحالة المراد دراستها من طرف الباحث مع الابتعاد عن الذاتية و استخدام العبارات الفضفاضة و المنمقة

الابتعاد عن الغموض في تحديد أهداف موضوع دراسة الحالة و تبني الباحث الوضوح و الشفافية لمحتويات الأهداف باعتبار أن المعرفة العلمية تعتمد على كل الأغراض و الغايات التي صممت الدراسة من اجلها .

التقييم الموضوعي و العلمي المتعلق بإنجاز الأهداف الرئيسية، وتوضيح العوامل و الأسباب التي تعمل على تحقيق بقية الأهداف الفرعية المرتبطة بالجوانب الضرورية لدراسة حالة . الموضوعية أثناء كتابة البحث مع استخدام أسلوب واضح ولغة مفهومة و مباشرة تساعد على تحقيق و بلوغ النتائج. (Bromley 1986 pp 173 202)

ثالثا: إجراءات فهم دراسة الحالة

ينطوي منهج دراسة الحالة على مجموعة من الإجراءات التي يجب مراعاتها منهجيا في دراسة الحالة أهمها :

1- تحديد المشكلات المراد دراستها بدقة متناهية (الإشكالية).

2- وضع فروض أو تساؤلات الدراسة و التي لها علاقة بإشكالية موضوع البحث .

3- جمع المعلومات المتعلقة بموضوع دراسة الحالة (دراسات، أبحاث ، مراجع ....).

4- فحص البيانات السهلة و التأكد من مصداقيتها قبل الانتقال إلى المعطيات المعقدة.

5- القيام بخطة متكاملة و تدو مسالة ضرورية تتطلبها الممارسة العلمية في مجال البحث العلمي .

6- تكون النتائج المتحصل عليها قائمة على كل البراهين و الأدلة المعرفية و العلمية المباشرة وغير على أن تكون مقبولة ووثيقة لموضوع دراسة الحالة.

7- توافر المرونة التي تسمح بإعادة دراسة الظاهرة و تقسيمها و استخدام اكثر من فهم وتقنيات بحث أخرى من اجل التأكد من مصداقية و صحة النتائج .. Cooper 1984 pp 308 373

رابعا : منهج دراسة الحالة و علاقته بمناهج البحث الأخرى:

هناك علاقة تكامل بين دراسة الحالة...وطرق ومناهج وأساليب البحث الأخرى ففي معظم البحوث النفسية والاجتماعية والإنسانية فان المسح ودراسة الحالة يكملان بعضهما بعضا، وهناك علاقة وثيقة بينهما ، تماثل العلاقة بين التحليل العاملي (المعكوس) للأفراد في الحالة تتطلب الفحص التفصيلي لعدد قليل ومتمثل من الحالات، أما طريقة المسح فإنها تتطلب تجميع البيانات الكمية من عدد كبير من المفحوصين (سهيربدر، 1982، ص ص 154، 167).

ومن ناحية أخرى ، فان المتابعة الناجحة لتاريخ حياة أحد الأفراد أو عمليات تطوير إحدى الهيئات أو المجتمعات تتطلب مصادر وقواعد البحث الوثائقي أو التاريخي كما تستخدم وسائل جمع البيانات كالاستخبارات ومقاييس التقدير، و الملاحظة ، والاستبار (المقابلة) ، و بطاقات الدرجات والمجلات الواقعية المتنقلة، و شهادات وأدلة الرواة وسجلات الحياة هذا فضلا عن استخدام الطرق الإحصائية (الآبار مترية) ، عندما تكون الحالات

مصنفة وملخصة لتكشف عن عدد مرات تكرار حدوث الظاهرة بالإضافة إلى التطورات والاتجاهات ونماذج السلوك...وهكذا فان من يستخدم منهج دراسة الحالة يستطيع أن يختبر مواقف وأشخاص وجماعات ونظم اجتماعية بحيث تكون نظرته إليها نظرة كلية ومن الممكن أيضا أن يصل الباحث إلى تعميمات عن طريق دراسة عدد من الحالات وتجميع البيانات والمعلومات عنها بطريقة سليمة كما قد تكشف هذه التعميمات عن عوامل سببية عديدة تؤثر في الموقف الاجتماعي وبذلك فان منهج دراسة الحالة ينجح في توضيح وتفسير العوامل الدينامية الإنسانية المؤثرة في الموقف الكلي، ومن هنا كانت أهمية دراسة الحالة والبعد بها عن التجريد وفي فهمها فهما متعمقا وشاملا، من خلال تجميع كل المعلومات المتاحة وعندما ينتهي الباحث من هذا التجميع المفصل لكل الحقائق الدقيقة عن الشخص فانه يتمكن من وضع صورة كاملة ومستمرة لخبرات هذا الشخص وأفكاره وتوجهاته علة مدى فترة معينة من الزمن ومن ثم يتمكن من أن يقدم لنا تفسيرا لهذه الخبرات والأفكار والتوجهات.

خامسا: تطبيقات منهج دراسة الحالة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية

يقوم منهج دراسة الحالة على جمع كل ما يتعلق بالحلة من مشاهدات أو شواهد لها صلة بالحلة والواقعة موضوع البحث ، دون تمييز بين القديم والحديث من هذه المشاهدات، ثم تصنيفها في جداول وإعدادها للاستقراء والاستنتاج واستخلاص الشواهد الإيجابية المؤيدة والشواهد السلبية ، ثم يأتي بعد ذلك دور التفسير الذي لا يكون باستنباط الأحكام الجازمة مباشرة بل نتوصل إليه تدريجيا عن طريق حذف ، أو استبعاد ، ما لا يتفق مع الحالات التي جمعناها ورتبناها في الجدول، و استنباط الشواهد الفاصلة، وهي أحكم الشواهد في عملية التفسير. وعلى ذلك يتبين كيف أن منهج دراسة الحالة يقتصد إلى حد كبير على مبدأ الاستقراء الذي نجاوز به حدود ما نعمله لنحكم على ما لم تكن نعمله. ومن ثم فان

هذا المنهج يشير إلى فئة أو صنف من البحوث أكثر شمولا وعمقا من الدراسات النفسية للحالات الفردية ، إذ أنه يتضمن إلى جانب ذلك تحليل الموقف، في كثير من المجالات المختلفة مثل: الإدارة الحكومية وعلم التشريح ، و الكيمياء الحيوية، و علم الاناسة، و دراسات العمل، و الذكاء الصناعي وعلوم الطب ، و الطب الإكلينيكي، و علم الجريمة ، و التوجيه والإرشاد والتعليم والتربية ، وعلم الشيخوخة ، و التاريخ ، و العلاقات الصناعية والعمل المهني والحرفي، و الدراسات العسكرية ، و علم الإدارة، والشخصية ، وعلم السياسة، و فلسفة التشريع،والطب النفسي، و العمل الاجتماعي، و علم الاجتماع، و علم النفس، و غيرها من المجالات والعلوم والميادين المختلفة (see bromley, pp3-7 1977).

ويهتم منهج الدراسة الحالية بجميع الجوانب المتعلقة بشيء أو بموقف واحد على أن يعتبر الفرد، أو المؤسسة، أو المجتمع، أو أي جماعة كوحدة للدراسة ويتميز أسلوب البحث هذا باهتمام الباحث بحالة واحدة أو وحدة واحدة بدرسها بتعمق ويهتم بجميع جوانبها، و قد تكون الوحدة فردا أو أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمعا صغيرا، و يستخدم هذا المنهج عندما يحتاج الباحث إلى معرفة أكبر قدر ممكن من البيانات عن الوحدة أو تاريخ الحالة إذا كان المعني بالأمر فردا (أنظر : أحمد بدر ، 1977، ص 237) ويقوم هذا التقسيم على التعمق في دراسة المعلومات المتعلقة بمرحلة معينة من مراحل هذه الوحدة ، أو دراسة جميع مراحل التي مرت بها ويتم فحص واختيار الموقف المركب أو مجموعة العوامل التي تتصل بسلوك كعين في هذه الوحدة، وذلك بغرض الكشف عن العوامل التي تؤثر في الوحدة المدروسة أو الكشف عن العلاقات السببية بين أجزاء هذه الوحدة... ثم الوصول إلى تعميمات عملية متعلقة بها وبغيرها من الوحدات المشابهة من حيث يقوم الباحث بالتحليل العميق للتفاعل الذي يحدث بين العوامل التي تؤدي إلى

التفسير والنمو والتطور تكون جزاء من حالة في إحدى الدراسات ويمكن أن تكون في نفسها حالة قائمة بذاتها في دراسة أخرى (bromly 1977 p 237)

سادسا: خاتمة

1- إن فهم دراسة الحالة تبحث في مشكلة إنسانية قائمة تحت الظروف الضغوطات و الأزمات المتنوعة و التي يقع تحت تأثيراتها الإنسان مما يؤدي إلى الاستجابة لها سلوكيا و توجه توجها معينا و ذلك وفق مجموعة احتمالات مختلفة تعمل تحريك سلوكه في وقت مناسب .

2- تهتم فهم دراسة الحالة بسلسلة من الوقائع و الأحداث المرتبطة بالحياة المعاشة للإنسان والتي يمكن دراستها بدقة ضمن خطة علمية من اجل الوصول إلى نتائج امبريقية و هذا من اجل الإسهام في وضع الحلول المنابة لها .

3- يعمل منهج دراسة الحالة على كشف الواقع و الخلفية التاريخية و العلمية و الثقافية و الاقتصادية و النفسية و البيئية وحتى سياسية و ربطها بمشكلة الدراسة .

المراجع

1- Bromley David , Personality Description In Ordinary language , John Willey an son New York 1977.

2- سهير بدير ، البحث العلمي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982.

3-أحمد بدر ، أصول البحث العلمي و مناهجه، وكالة المطبوعات الكويت 1977

4- حامد زهران ، التوجيه و الإرشاد النفسي ، عالم الكتب القاهرة ، 1980.

5- أحمد عبد الخالق، أسس علم النفس ، دار المعارف ، الإسكندرية ، 1989.

6- مصطفى التير ، مقدمة في مبادئ و أسس البحث الاجتماعي ، دار النشأة الشعبية للنشر والتوزيع و الإعلان ، ليبيا ، 1983 .

7- Bromley david ; the case study method in psycholgy and related disciplines john willey and sons new yourk ;1986.

8- Cooper .b, writing technical reports penguin books harmonds worthm , 1984.